



أمجد سعيد

مدنية الفارابي

في المقالة البحثية المعنونة بـ«المصطلح المدني عند الفارابي وفي الفلسفة الإسلامية» للأستاذة منى أحمد أبو زيد، والمنشورة في مجلة التفاهم، تم تعريف المدنية والمصطلح المدني على أنه الشكل الأول الذي يمثل مفهوم المدينة والاجتماع الإنساني، وقد ورد هذا المصطلح بأشكال وتعابير مختلفة منها: «التدبير المدني»، و«العلم المدني»، و«السياسة المدنية» وغيرها، مما حظى التعبير الأخير باستخدام واسع في مجال السياسة ونموها.

المصدر الأول: الدين الذي وضع مجموعة من التشريعات المنظمة لحياة الإنسان في حالته الفريدة والاجتماعية بكافة مجالاتها، من خلال مجموعة من القيم الأخلاقية، والتي دلت عليها الرسول الكريم بقوله: إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

المصدر الثاني: الفلسفة اليونانية، التي دارت حول مفهوم السعادة، وقامت على الفضيلة، وجمعت بين الأخلاق والسياسة، فكانت الفضيلة محور فلسفة سقراط القائل: إن المعرفة فضيلة والجهل رذيلة، مروراً بأفلاطون ومحاوراته التي دار معظمها حول فكرة أخلاقية أو سياسية، وصولاً إلى أرسطو الذي عدّ كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس» مقدمة لكتاب السياسة.

وقد تأثر الفلاسفة المسلمون بالاتجاه الذي يربط بين الأخلاق والسياسة، متأثرين في ذلك بالمصدرين السابقين، وظهر هذا الربط جلياً عند الفارابي وغيره من فلاسفة الإسلام؛ فقد قسم الفلاسفة المدنية إلى قسمين: أحدهما يحصل العلم، والثاني العمل. الأول يسمى الأخلاق، والثاني يسمى الفلسفة السياسية.

وقد سعى الفلاسفة المسلمون إلى التوفيق بين الفلسفة والدين، فأرأوا أنّ الغاية التي تسعى إليها الفلسفة لا تختلف عن الغاية التي يسعى إليها الدين، فكلاهما يقدم الحقيقة، وكلاهما يهدف إلى سعادة الإنسان والمدينة؛ ولكنهما اختلفا فقط في طرق الوصول إلى هذه الحقيقة، أحدهما وصل إليها عن طريق العقل والآخر عن طريق الدين، أحدهما عن طريق البرهان، والآخر عن طريق الحكمة والإرشاد والقصص والموعظة. وتصبح المدينة سعيدة عندما تحكمها طبقة الحكماء العلماء الملمين بالمعرفة؛ معرفة النظام السياسي وقوانينه، ومعرفة العلوم والحقيقة إذا كانت هناك حقيقة مشتركة بالفعل.

بن سهل البلخي الذي سلك في مصنفاته طريق الفلاسفة، وألف كتباً عديدة منها: «السياسة الصغير» و«السياسة الكبير»، ولا ننسى أبا الحسن العامري صاحب كتاب «السعادة والإسعاد» الذي لخص فيه محاوره الجمهورية لأفلاطون.

وعلى الرغم من كثرة الباحثين في علم التدبير المدني والسياسي؛ فإنّ الفارابي يأتي في قمة الفلاسفة المسلمين الباحثين في هذا المجال، الذي أطلق عليه مصطلح العلم المدني أو السياسة المدنية؛ فهو أهم فيلسوف مدني في الفلسفة الإسلامية. وقد قام بتقديم مؤلفات عديدة في هذا المجال جمعت بين السياسة والأخلاق والسعادة، وربما لا نبالغ إذا قلنا: إن فلسفة الفارابي في أغلبها تدور حول هذه الموضوعات الثلاثة. ومن أهم هذه المؤلفات التي دارت حول العلم المدني: السياسة المدنية، وآراء أهل المدينة الفاضلة، وتحصيل السعادة، وإحصاء العلوم، والملة، وأخيراً رسالة في السياسة.

ارتبطت الأخلاق بالسياسة ارتباطاً عضوياً في الفلسفة الإسلامية، وصار كلاهما ينشد غاية واحدة تتمثل في إيجاد الفضيلة والسعادة، سواء أكانت في المجال الفردي الأخلاقي أم المجال الاجتماعي السياسي. ظلت هذه السمة غالبة على الفكر السياسي طوال العصور الوسطى، حيث لم تستقل السياسة عن الأخلاق وتصبح لها مفاهيمها المحددة وقوانينها المخصوصة إلا على يد توماس هوبز وميكافيلي عندما استقلت السياسة عن الأخلاق. فالإنسان من حيث فردانيته فهو كائن عاقل، وهو كعضو في المجتمع «حيوان مدني» ومشكلة الإنسان هي موضوع الفلسفة المدنية التي تنشطر إلى قسمين؛ قسم يعالج سلوك الفرد ويسمى الفلسفة الإخلاقية، وقسم آخر يسمى الفلسفة السياسية، يعنى بسلوك سكان المدينة. هذا الربط بين الأخلاق والسياسة يعيدنا إلى مصدرين أساسيين:

إنّ من خصائص المدنية التي من الممكن أن تشكل نواة هذه الفلسفة الاجتماعية، هو أنه لا بد من اتخاذ كافة القرارات بالتعقل والتروي مع حضور كامل للمعرفة الموضوعية، وهذا يقتضي اللين والرفق، وهنالك مواضع مختلفة تماماً كما في السياسة المدنية وخلق القوانين للناس عامة مع اختلاف صفاتهم ومراتبهم الاجتماعية، ويأتي التدبير المدني في هذه الوضعية كوسيلة لخلق سياسة للجميع، التي تعالج المشكلات الناجمة عن التفاؤل بينهم في الأملاك والثروات، ويقوم بعقلنة التنافس ويقلل من التحاسد، ويدعم العدل والإنصاف.

لقد اجتمع الفلاسفة المسلمون على أن هذا التدبير المدني هو صورة مصغرة من التدبير الإلهي للكون، وعقدوا مقارنة بين المجالين، كما عقدوا مقارنة أخرى بين نظام المدينة وطبقاتها مع النفس الإنسانية وقواها وأهوائها، وقد توصلوا إلى وجود قانون كلي عام دائم وثابت يحكم كلاً من الكون والمدينة والنفس، فالنظام السياسي في المدينة له قانون كلي، إذا التزمته أي مدينة تحولت إلى مدينة فاضلة، كاملة وعادلة. فالعلم المدني وعلوم الكون هي علوم مترابطة بطريقة ما، وبالتالي فالنظر في أحدها يعطي صورة للعلمين الآخرين.

أما بخصوص الفارابي، فهو لم يكن العالم الأول الذي تناول السياسة في الفلسفة الإسلامية بل هناك من سبقه في هذا المجال. بحسب الكتب المؤرخة لذلك، أنّ الكندي هو أول من قام بهذا العمل، وألف إحدى عشرة رسالة في السياسة والأخلاق، ولحقه من بعده تلميذه السرخسي ووضع كتاباً في الحسبة الصغرى والحسبة الكبرى، وآخر في السياسة.

أما في عصر الفارابي ومعاصريه فكان هناك اهتمام كبير بالمباحث السياسية والأخلاقية، وعلى سبيل ذكر بعض من معاصريه نجد هناك، أبا زيد أحمد